في مرضاة الله (*)

لا يسأم المؤمن الذي توافرت له يقظة القلب وإشراقة النفس من العمل الدائب ابتغاء مرضاة الله تعالى، داعياً ـ على الرغب والرهب ـ من يجيب المضطر إذا دعاه، أن يُكتَب له القبول، وأن يجعله في عداد مَنْ تَثْقُل موازينهم يوم القيامة، وذلك هو الفوز الكبير.

وانطلاقاً من هذه النقطة يبصر المؤمن كل واحدة مما يلاقيه من مصاعب أو متاعب في قضايا أمته لها وجهان: أما **أحدهما**: فهو ما تفرضه مواجهة تلك القضية من جهد جاهد ودأب مخلص، ليعدَّ لها العدة ويواجهها بما تحتاج إليه. **والثاني**: أنها واحدة من موائد الحق سبحانه، يقبل عليها مَنْ يقبل، ليكون له من إنجاز ما يفرضه الإسلام بشأنها بريد خير، وطريق سعادة ينالها مَنْ أحبهم الله وأحبوه، ورضي الله عنهم ورضوا عنه.

وفي هذا: لن يكون ثقل التبعات وصعوبة اقتحام العقبات، باعثاً على الهروب من الساحة أو إلقاء الحبل على الغارب، خصوصاً فيما يخمِّره العقل الباطن ويخرج على فلتات اللسان، أو يظهر على التصرفات وكأنه قضية مدروسة اتخذ لها بعد البحث والتمحيص قرار. بل على العكس: إن شعاره دائماً ﴿**وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾. ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ**﴾.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثاني، السنة الحادية عشرة، ربيع الآخر ١٣٩٠هـ، حزيران ١٩٧٠م.

والحق أن هذه اللمسة الإيمانية التي تحرِّك المسلم من الأعماق هي التي تجعله أكثر حركية وقدرة على التأثير بما يسبق خطوته من الإخلاص والتقوى، وهي التي تطبع عمله بطابع الاستمرار، والصبر على كل المعوقات عند إرادة التغيير، والانتصار على عوامل اليأس واستبطاء النتائج وثمرات العمل.

والمؤمن - في ذلك كله - يرافقه على المدى وضوح في الرؤية، ووعيٌ للواقع الذي تظله أحداثه، وإدراكٌ لطبيعة الأرض التي يتحرك عليها في مواجهة أعداء أمته هنا وهناك، وقدرةٌ على تقويم كل صغيرة وكبيرة، مما تلده الليالي ويطلع الفجر به على دنيا الناس كل صباح.

لذا تراه - وعناية الله معه - لا يتخلَّف عن واجب، ولا يضيق ذرعاً بالمسؤولية، ولا يتبرّم بالتكليف، ولا يطيش أمام تلك الصور المعادية التي تفجؤه بألوانها وأشكالها طولاً وعرضاً وعمقاً وانحرافاً قد لا يخطر لك ببال.

والحقيقة التي يحكيها التاريخ وتعطيها دراسة الوقائع أن انعكاس المشكلات التي تعترض سبيل الأمة حين يكون صحيحاً في نفوس أفرادها وأبنائها، ترى من آثاراه تطلعاً دائباً إلى ما به يكون تصحيح الطريق إذا اعوجت الطريق. . ، واهتماماً بالكليات التي ترتبط بها تلك الجزئيات مما تلقيه الأيام هنا وهناك في طريق الأمة، على كل صعيد يحقق للأعداء - وهم يتحركون على نطاق عالمي - ما تمتد إليه أعناقهم من إضعاف هذه الأمة،

وتحويلها من بعد عن الصراط المستقيم والاعتصام بحبل الله. كل ذلك بعد تجريدها من مقومات وجودها، وامتصاص طاقاتها التي لو أحسن توجيهها والإفادة منها، لأعطت أفضل الثمرات وأطيب النتائج.

ونحن أمة أعزَّها الله بالإسلام، وجعل بين ظهرانيها كتابها الذي أنزل بلسان عربي مبين، والذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وحفظ - بجهود العلماء الأمناء - سُنَّة نبيها التي هي بيان ذلك الكتاب، وأكرمها بما أكرمها به من أئمة الهدى، ومنارات العمل والجهاد، الذين يصدق فيهم دائماً - وحتى قيام الساعة - قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾. وقوله - عليه الصلاة والسلام -: [**يحمل هذا العلم من كل خلف عدو له ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين**].

فإذا حزب الأمر، وذرّ البلاء بقرنيه، لا تنطلق الأمة من ضياع، وإنما تعود - لو أنصفت - إلى منابع حياتها الأصيلة، التي هي الموئل والعاصم. وفي سيرة النبي - صلى الله وسلم وبارك عليه - وسيرة أصحابه، وكل من سلك سبيلهم بإحسان، ضياءٌ لمن أراد أن يستضيء، ومَقْنَعٌ لمن أراد مقنعاً، وبابٌ عريض من أبواب الخير، أن لو ابتغينا لأمتنا الخير، وأردنا لها أن تعود إلى قيادة الركب الإنساني من جديد.

ولسنا - نحن بصدد هذا الحديث - بناسين أن التركة التي ورثها هذا الجيل مثقلةٌ حقاً بما خلَّفته أجيال مضت أورثتنا معه الكثير من الرزايا وصنوف الأهوال، خصوصاً إذا وضعنا في الحسبان ما يستخدمه أعداء الإسلام - وقد سيطروا على الحضارة المادية - ضد هذه الأمة من علم ومعرفة ووسائل تدمير

مادي وفكري وصل إليها العقل البشري اليوم. ولكننا ـ ونحن في ظلال هذا الواقع والأعداء يتآمرون على أرضنا ووجودنا ـ يجب أن نذكر ما ورثناه من الخير الكبير وحسن الأسوة، وأن نذكر بجانب ذلك أن الصراع بين الحق والباطل قائم ما دام هذا الإنسان على وجه البسيطة، وأن ذلك مما تقتضيه طبائع الأشياء. والمسلم دائماً في نصرة الحق وكرامة الإنسان، والثواب على قدر النَّصَب. ثم إن الابتلاء صنو الإيمان، أم ترَ إلى كثرة ما ورد في ذلك من النصوص التي منها قوله تعالى: ﴿**الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا أَن يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾.

ولقد يكون من الخير ـ بعد ذلك ـ أن نعترف بأن ما نجنيه اليوم قد يكون ـ إلى جانب مشاركتنا الواضحة نحن فيه ـ حصاد قرون بدأت يوم بدأ الجنوح عن الخط الإسلامي الصحيح. ولكن ذلك كله يهون حين ينظر المسلم إلى الأمر من خلال منهج رباني قرآني هو عنوان حركة فيه، لا إلى نفسه من حيث الـ (أنا) والحفاظ على الذات. نعم: ينظر من هذه الزاوية وقد سلم له التصور، وصدق في أن تكون الغاية مرضاة الله سبحانه مع ملاحظة أمرين اثنين:

أولهما: وجوب تحرير الخطوة السليمة في حدودها وأبعادها ومنطلقتها، كيما نطمئن إلى أننا قد وضعنا أقدامنا على الطريق، وذلك لا يقتصر على حالة دون أخرى، وإنما يشمل كل حالات العمل مهما اختلفت الألوان والساحات، ومهما تنوَّعت الاختصاصات والسُّبل [**إنما الأعمال بالنيات**]. [**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**].

ثانيهما: إن المهم هو استنفاد الطاقة في العمل لخدمة هذه الأمة، بحيث لا يبخل المسلم بعطاء يستطيعه، ولا يتوانى عن جهد يقدر عليه، عطاء العاقل وجهدَ البصير، تحقيقاً لكلمة الله في الأرض، بصرف النظر عن قرب الثمرة أو بعدها، حصول النتائج غداً أو بعد حين، فالأمر لله وحده يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد.

والذي عليك: أن يراك الله مؤدياً للأمانة باذلاً الجهد، أميناً على ثغر الإسلام الذي أقامك هو سبحانه عليه، فلا ينفذ إليه الأعداء من قِبلك.

وفي وقائع السيرة ما يعطي أن كثيراً من السابقين الأولين ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ من أولئك الذي باتوا على الطوى، وغمرهم عنفوان الأذية في سبيل الله، وتجرعوا العلقم في أول الطريق حتى حملوا ـ بعون الله ـ العهد المكي ـ الذي كان القاعدة ـ على أكتافهم: لم يبصروا رايات الإسلام المظفَّرة تخفق في بدر والفتح والقادسية، ولا شهدوا تطبيق شريعة الإسلام في المجتمع تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿**وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ**﴾ لقد طواهم الردى قبل أن يشهدوا النصر والتمكين، ولكنهم قدموا على الله وقد أعطوا كل شيء في سبيل الله، وفي وجه كل واحد منهم ألف دليل ودليل على أنه من رواد قافلة الإيمان الذين دميت أقدامهم وهم يشقُّون للإنسانية طريقها من جديد، وقيل لهم وقد فتحت أمامهم أبواب الجنة: ﴿**سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾.

وفي كتاب الله تعالى العديد من المواطن التي ترسِّخ هذا المعنى وتدعو إليه، بل إن الله تبارك وتعالى أثنى على أولئك الذين يعملون ما يعملون

وهم وجلون أن لا يقع عملهم موقع القبول، ذلكم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾. لقد أبانت عائشة وغيرها من الصحابة عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنهم يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أن لا يتقبل منهم، وفي قراءة لعائشة: وأتوا بدل وآتو وكانت ترى أن ذلك أوسع في المعنى. هل رأيت!!

إننا إن فعلنا ذلك عدنا إلى ما كنا عليه، عنوان حركة الخير، وبُناة حضارة مثلى للإنسان. ولن يمر التاريخ بأرضنا ليقول: إن عدد هؤلاء كذا وحسب، ولكن ليقول مرة ثانية ـ كما قال في الماضي ـ: هؤلاء صنعوا بإسلامهم للإنسانية كذا، وبنوا للحضارة كذا، وعبَّدوا للمعرفة والهداية أوسع طريق؛ وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ما هو بتجربة ولكن (*)

هذه الغاشية من الهول التي تحيط بعالمنا الكبير، وما يبدو من انحسار الإسلام عن القيادة الحضارية اليوم، كثيراً ما تكون سبباً في سقوط الضحايا من أولئك المسلمين الذين يعيشون على هامش الإسلام، سطحية بلا عمق، ووراثة بلا عمل؛ لأنهم - وعجلة الأحداث تنوشهم من هنا وهناك - يتخيلون في الإسلام تجربة من صنع البشر زاولتها أمتنا وحملتها إلى غيرها من الأمم قبل أربعة عشر قرناً من الزمان وما يصلح لزمن قد لا يصلح لآخر..

وهذا كلام قد يبدو سليماً - لأول وهلة - أن لو سلَّمنا بنقطة الارتكاز واعتبرناها من الحقيقة بسبيل، لكن القضية - كما يعرضها بعض الأناسي، أو تعرض للأغبياء منهم - لا تعدو أن تكون لوناً من ألوان التمويه الخبيث الذي يتعارض مع أصل العقيدة في ذاتها؛ لأنه يقوم على تفسير معين للوقائع، ينكر الوحي، ويأتي على طبيعة الرسالة السماوية من جذورها، غير معترف بها ولا ملتفت إلى صلة السماء بالأرض.

فالإسلام - والأمر غني عن الإثبات - رسالة من عند الله عز وجل، نزل بها الروح الأمين على الرحمة المهداة نبينا محمد - صلوات الله وسلامه عليه - قرآناً يتلى خلال ثلاثة وعشرين عاماً أو تزيد ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الثالث، السنة الحادية عشرة، جمادى الأولى ١٣٩٠هـ، آب ١٩٧٠م.

والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أُمِّي لا يقرأ ولا يكتب، اصطفاه الله لرسالة لم يُعرف قبلها شاعراً ولا خطيباً ولا زعيماً ممن لهم الصدارة والوجاهة، وجُل ما عرف به ذلك الأنموذج العالي من السلوك حتى لقب بـ «محمد الأمين»، وبذلك الأنموذج العالي من التعقل وحب الخير حتى درأ الله به الفتنة في قضية الحجر الأسود ومكانه من بناء الكعبة المشرفة.

ولم يحمل لنا التاريخ أي مقدمات تدريجية تدل على أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت نتاج تطور طبيعي بالنسبة لكفاءة الرجال يومذاك. ولكننا وجدنا ـ والله أعلم حيث يجعل رسالته ـ أن بين محمد بن عبدالله صلوات الله عليه وسلامه ـ بوصفه رسولاً ـ وبين أي عظيم عرفته العرب يومذاك بَوْناً لا يكاد يُحد من جميع الوجوه التي تبرز فيها خصائص الرجال، حتى من ناحية البلاغة التي كانت تسجد لها العرب يومئذ، شهد تاريخ الأدب في العالم أن محمد بن عبدالله الذي لم يعرف قبل البعثة بشعر ولا خطابة ولا اشتراك في أسواق العرب التي يتبارى فيها البلغاء والفصحاء من شعراء وخطباء، شهد تاريخ الأدب أبلغ وأفصح رجل عرفته العرب، ورأى القوم أن كلامه يأتي في مرتبة تالية بعد كلام الله المعجز الذي عجزوا عن أن يأتوا بشيء من مثله.

ولحكمة يريدها الخالق جل وعلا، تكرر في التنزيل توكيد أمية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ونفي الشعر عنه ﴿**فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ**﴾. ﴿**الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ**﴾. ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ**

﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾. ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾.

وإذا كانت الأرض لا تخلو من السفهاء، فقد زعم بعض الكفرة يومذاك مع يقينهم بأمية الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، أن راهباً أعجمياً يُلقي إليه بما يدعوهم إليه ويسمعونه منه، واقتحمهم الرد القرآني بما كشف عن رداء الغفلة الذي تتسربل به عقولهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾.

وإنا إذ نشير بهذا الإيجاز إلى تلك الحقيقة، فلكي نقطع الطريق على أولئك الذين تهولهم مضمونات الإسلام بما تحمل من إنسانية وواقعية وحركية يدركون أنها هي القادرة ـ ولا قادر غيرها ـ على إيقاظ هذه الأمة على عواء الذئاب التي تقوم بالعدوان على أرضها ومقومات عقيدتها وفكرها ووجودها.

وكان الإسلام خاتمة الرسالات السماوية، وأكرم الله هذه الأمة بأن جعلها وسطاً بين أمم الأرض لغرض أراده وحكمة شاءها ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ وانظر في هذه الوسطية وحَمْلِق، وارجع البصر كَرَّتَين لتجد من مضموناتها العجب العجاب.

وهكذا جعل الله من المسلمين حراساً للحقيقة الإيمانية التي أثبتت وقائع التاريخ أن الإنسانية لم تعرف طعم الحياة بدونها، وأن الإنسان لم يتذوق معنى كرامته ووجوده إلا بوجودها. ولذلك نستطيع القول ـ من خلال كون الإسلام رسالة سماوية لا تجربة ـ: إن المسلم الصادق يمثل في هذه الأرض صدق رسالات السماء التي انتهت بالإسلام، الدين الذي دُعي إليه الناس كافةً على لسان البشير النذير محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ورضيه الله لعباده، حيث أكمل به الدين وأتم النعمة ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾.

ولو كان الأمر تجربة من صنع الإنسان لانْقلب وجه القضية رأساً على عقب؛ إذ أنى للعقل أن يجاري الوحي في هذا المضمار، والتجربة كثيراً ما تعيي العقل، فتقع الأخطاء وتقوم المحاولات لتصحيحها، وكم تضيع أعمار، وتهدر طاقات، وتتعثر شعوب، وتتعرض للضياع والحرمان بهذا السبب الذي هو خطأ التجربة ومحاولة إصلاحه، فرسالة السماء جاءت كاملة لأنها من وحي رب الكمال سبحانه ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾. والباب مفتوح للاجتهاد عند تطبيق الجزئيات والوقائع غير المنصوص عليها بما لا يتعارض مع بنية الإسلام كما أراده الله. وهذا الكمال كان وجهاً من وجوه الإعجاز في رسالة الإسلام.

وهكذا فالذي يصح أن يقال: إن الأمة الإسلامية قد جربت تطبيق تلك الرسالة التي آمنت بها، فعادت عليها بالخير الوفير على صعيد الفرد

والجماعة والدولة والأمة، وكل الوقائع ـ على اختلاف الظروف ـ شاهد بارتباط التمكن في الأرض، والعزة التي لا تدانيها عزة، والسلطان الذي لا يقهر ـ بالتطبيق الواعي لمضمونات تلك الرسالة في العقيدة والشريعة والسلوك. وهو تطبيق له ـ مع كل المؤيدات ـ: حراسة داخلية من الوازع الذي يجعل المؤمن في مراقبة دائمة لله عز وجل. فالإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وما أوسع ميدان العبادة في الإسلام، وأمر الوازع هو ما تفتقده التجربة التي هي من صنع الإنسان؛ لأنه من خصائص رسالة السماء. وكم أقضَّ هذا الوازع مضاجع الأعداء؛ لأنه دائماً بشير العودة الصادقة إلى الخط المستقيم، والإخلاص في العمل، والبعد عن مستنقعات اليأس والانقطاع.

ويوم عدلت الأمة عن التطبيق واستهانت بتنمية الوازع والخشية من الله الذي لا تخفى عليه خافية، ورضيت من الإسلام بكلمات على اللسان، أو أضواء تبهر الناظرين في المناسبات، وفصلت بين العبودية والألوهية التي تجعل الحاكمية لله عز وجل، وأصبح الدين وكأنه هواية لفئة من الناس دون أخرى، يوم فعلت الأمة ذلك أصبحت في مؤخرة الركب، فتداعت عليها الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها.

وكل من كانت له نسبة إلى أولي الألباب، لابد أن يستقرئ الحوادث ليتعلق بالمقدمات التي ترتبت عليها النتائج، على اختلاف ألوانها ومدلولاتها.

ولسوف يجد أنه ما دامت هذه الدعوة من عند الله، وقد أثمر الاستمساك بها ما أثمر من نتائج طيبة وثمرات، فليس للمسلم اختيار ـ بوصفه مسلماً يحرص على نفسه وأمته ـ في أن يحول عنها أو يولي وجهه شطر غيرها كيما يختار بعد التجربة أيَّ شيء يريد. . نقول هذه الكلمات ونحن نشهد ضياع الكثيرين وسط الزحام، وانهيار الكثيرين في معترك الأضواء، ودوار العديد من الأناسي في حمَّى الرغبة والرهبة، وتصدُّع القلوب أمام الطغيان الذي يحرك ميزان القوى في العالم، والإسلام عن ذلك بمعزل.

ومن العجب العجاب أنك قد ترى ذلك ـ وهو ما أشرنا إليه في صدر كلامنا ـ عند بعض أولئك الذين يطلق عليهم صفة المثقفين، فهو أمر لا تجده عند الإنسان العادي المؤمن الذي لا يزيد على الحوقلة في شأن تخلف المسلمين عن تطبيق الإسلام حكماً في قضاياهم ونبراساً لحياتهم في نظامه وشريعته ومبادئه في الأخلاق والسلوك.

والحق أن الإسلام بحاجة إلى مثقفين بالمعنى الحقيقي للمثقف بشكل عام، والمثقف المسلم بشكل خاص. فالثقافة ـ كما هو معلوم ـ لا تعني أبداً جمع ألوان من المعرفة وكفى دون تكوين ملكة قادرة على العطاء، العطاء الذي يبدو من ورائه ذلك التقويم الذي أفاد منه العقل من جراء تلك المعارف التي اختزنها يوماً بعد يوم. وما لم تقم المعرفة بدور التثقيف الذي هو التسوية والتقويم للفكر والسلوك: فلن يكون صاحبها مثقفاً بالمعنى الحقيقي.

والمسلم إذا انطلق من هذه الحقيقة الذاتية إدراكاً لحقيقة الرسالة المحمدية. لا يستأخر ساعة من الزمن - بسبب أن الإسلام تجافيه القوة اليوم - عن مراجعة رصيده من العمل وتجربة التطبيق دونما تلفت أو حيرة أو شكوك. وعند ذلك يكون عنده من الرسوخ والمنهجية وسلامة القصد وإخلاص النية، ما يجعله يرى كالشمس الطالعة في رابعة النهار، أن القوة لا يصح أن تحل محلَّ الحقيقة أبداً، مهما طال الأمد وامتدت حبال الإمهال، ولكن تلك القوة يجب أن تكون في خدمة الحقيقة وذلك ما يسعى إليه المسلم. ذلك أن أولئك الذين يحركون ميزان القوى في العالم - وهم دائماً وراء ضلالات العناوين التي توضع للإسلام - لم تستطع قوتهم أن تقيم برهاناً واحداً على أنها تحرس الحقيقة، بل العكس هو الصحيح؛ وهمّها العدوان على مقدرات الشعوب التي تعتبرها دمى تحركها من وراء، وعناصر لموائد تتلذذ بالتهامها وجذبها، حرباً وسلماً، ومداعبةً، وتأديباً، وتأنيباً، ولعباً على الحبال من طريق الذين يجيدون اللعب على الحبال؛ فالمنطق يخرس، والسلاح يتكلم، والحقيقة لا يسمح لها بالظهور، والتآمر يذر قرنه بخبث ثعلبي بشتى العناوين البراقة من هنا وهناك.

والمسلم - وهو يعيش حياة المجاهد - ما دام على وعي من أمره، وعلى بصيرة من طريقه، لا يفجؤه الأمر، لأنه يدرك طبيعة الصراع بين الحق والباطل.

ومن خلال ذلك كله - والحديث موصول - لابد أن يكون المسلم وخصوصاً في هذه الظروف الحالكة التي تحيط بالأمة، من أن يكون على

ذكر من وجوب سلامة المنطق واستقامة الطريق، والحيطة والاحتراس من كل بادرة تتجافى مع الحق الذي بعث به محمد ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ. إننا إن سلكنا هذه السبيل، كنا قادرين على أن نجتاز العقبة الكأداء، وننجو وسط الزحام من الهول، وندقّ حصون الإثم فنعيد إلى أمتنا حقها السليب. وإلا حقت علينا تلك النذارة التي أنذر بها النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ أولئك الذين تلعب بهم الأهواء وذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه: [**سيخرج من أمتي أقوام تتجارى بهم الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه، لا يبقى منه عرق ولا مفصل إلا دخله**]. ولله عاقبة الأمور.

ليس بالأماني (*)

﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٣﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾. تلك سنة الله وعدالته، فلن يصلح أمر هذه الأمة أن تتعلق بألوان من الأماني دونما عمل أو أخذ بالأسباب، ولكن يصلح أمرها في أن تعزم الأمر عزمة الرجال لتمسك بزمام الخير من جديد غير مبالية بما قد يكلفها ذلك من صبر وعناء؛ لأن الإعداد الصادق للمواجهة الحازمة بكل متطلباتها الواقعية لابد له من ذلك، خصوصاً إذا وضعنا في الحسبان لغة العصر الذي يتسم باستخدام كل المكتسبات الحضارية في مواجهة الإسلام.

فلكي تصبح الأماني حقائق ماثلة تتحرك على الأرض، وتثبت وجودها في دنيا الواقع، لا مندوحة عن السبيل المعقولة المنتجة، سبيل العزيمة الإيمانية الصادقة، والسير بوعي ومنهجية، بعيداً عن العبث والتلهي بقصور ينسجها الوهم ويتثاءب بألوانها الخيال.

والنبع الثرّ الخالد الذي يمد العزائم في هذا المضمار، فينير العقول ويحرك القلوب، ويدفع بالسواعد، إنما هو تلك الحقيقة التي هي من أوليات الأمور عند المسلم، وبديهيات المعرفة لديه، وهي كون الإسلام رسالة من عند الله عز وجل، وليس تجربة من صنع البشر.

(*) مجلة حضارة الإسلام: العدد الرابع، السنة الحادية عشرة، شوال ١٣٩٧هـ، تشرين الأول ١٩٧٧م.

فإذا سلم تصور المسلم لهذه الحقيقة، واتجه في ظلها إلى الغاية: كان قادراً على أن يفعل الكثير الكثير. إن أمتنا لا تنتظر المعجزة اليوم، فالمعجزات ترافق الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لتثبت صدق ما يدعون، ولكن الأمة اليوم في ظل كتاب ربها وسنة نبيها، ثم فهوم أئمة الهدى ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ ترقب العمل الصادق الواعي. وعناية الله معها، وعطاؤه كائن لها ما استقام للعاملين الطريق وتوفر الإعداد الصحيح والإخلاص لله عز وجل، وإنما يكون ذلك بتكوين القاعدة الصلبة الواعية القادرة على تحمل مسؤولية الإسلام ـ وهو شرعة الله لعباده ـ عقيدة في القلب وإشراقة في العقل، ومنهجاً للحياة، ونظاماً للتطبيق.

وإن من الحماقة البلهاء: ما يكون من تجاهل أو تغافل عما به كان التحول الخطير في حياة أمتنا منذ بعثته ـ عليه الصلاة والسلام ـ، حين بلغت رسالة الوحي وهي تتلمس طريقها في الظلام. فلقد كان أمر الوحي نقطة البدء في هذه المرحلة الخطيرة من حياة الأمة؛ لأن إيمانهم أن ما جاءهم به محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ هو من عند الله وليس من عند نفسه، كان إعلان تحول جذري من حيث مفهومات الحياة والمقاييس التي ينبغي أن يقيموا عليها وجودهم بين أمم الأرض؛ والمعايير التي بها توزن أقدار الرجال حتى صدق فيهم قول النبي ـ عليه السلام ـ: [**الناس معادن، فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**].

وأبرز ما في الموضوع أن تلك المقاييس ـ بالإضافة إلى ما صنعت في إصلاحهم وتوجيه طاقاتهم وأهليتهم الوجهة الرشيدة الراشدة، وتنمية كيانهم في ظل الهداية الربانية المشرقة ـ جعلتهم في حال تحفز دائم لأن يخرجوا على واقعهم قبل الرسالة.

وكان ذلك ـ والحمد لله ـ. فبجانب الإصلاح الداخلي، استطاعوا أن يكسروا القيد الذي ضربته عليهم غطرسة الفرس والرومان، بل ورثوا أرضهم وديارهم. ونقطة البدء هذه جعلت من العربي صاحب رسالة يتطلع من خلالها إلى ما وراء الحدود، ويقوِّم بميزاتها تلك العقائد المثقلة بالخرافة وتعطيل العقل عند أولئك الأقوام، فضلاً عما كان عند بني جلدته الذين يساكنهم ويعيش معهم من تلك العادات والتقاليد الموروثة المتدحرجة مع الزمن إرثاً عن الآباء والجدود، والتي أناخت بكلكلها الجاهلي ردحاً من الزمن، حتى أكرم الله هذه الأمة بالإسلام وحمل العرب رسالته إلى العالمين.

والذي يرصد التحرك الإسلامي الواعي يوم كان المسلمون على الطريق، يرى كيف أن الرسالة بصَّرت الأمة بالخط المستقيم الذي يفضح كل الخطوط المعوجة ويكشف الأقنعة عن وجوه أصحابها، ويضع كلاً منهم في موضعه الطبيعي لا وكس ولا شطط، ولا غرور ولا تزوير، ولقد علَّمنا الله كيف نحمده على هذا، وهو أهل المحامد كلها فقال: ﴿**الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا ۜ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا**﴾.

والحق أن هذه المرحلة كانت رحلة جديدة على طريق الإنسانية التي عانت من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، وغرقت في بحار مظلمة من الوهم والخرافة والتقلب على أشواك الضياع.

من هنا كانت محاولة زعزعة الإيمان، وإقصاء المسلم عن ساحة الاعتقاد الصحيح، من الأمور التي تشكل المرتكز الأساسي في منهج أعداء الأمة؛ لأن ذلك يتيح لهم شغل الساحة بما يريدون من كل ما يضعف كيانها، ويحول دون أن تضع القدم الراسخة على سلم الحضارة من جديد، بعد أن نتخلص من عقدة التخلف، ووهم الاضمحلال، والعبودية للقوة التي تنمو على حساب كرامة الإنسان وحريته يوماً بعد يوم.

ولقد يتهيأ المناخ المناسب من طريق امتصاص الشعور الإسلامي والتطلعات الضائعة، بقضايا عاطفية جانحة، ناهيك عن تشويه الحقائق، وعرض القضايا من وجهة النظر الخبيثة الماكرة، وما أسوأها حالاً أن يستخدم ذلك عند الحكم على الماضي، ويتخذ سياطاً يقود فلسفة الوقائع، ويرسم طريق المستقبل للفرد وللجماعة.

ولو رحت تتلمس ذلك في المجالات الفكرية وغير الفكرية، لهالك الأمر وأدركت أننا حين نتغافل عن ذلك، ونغمس رؤوسنا ـ شأن النعامة ـ في التراب نكون كمن يريد أن يفكر بأخمص قدميه وما هو بفاعل.

ولئن كانت الأوليات في ميدان التوعية تقضي بالعمل على وضوح الرؤية، وإزالة ما يكون من عوائق النظر عند الحكم على الأشياء، إن علينا

أن نحسن التصور لما يفعله خداع العناوين في هذا المجال، لكيلا تفجأنا المذهلات في مصير الكثير من أبناء الأمة.

وفي ضوء هذا التصور الواقعي الذي لا مندوحة عنه ـ والكرب يشتد على المسلم يوماً بعد يوم ـ تنكشف الأقنعة، وتظهر من وراء الأشباح نكارة تلك الجريمة التي يمارسها أولئك الذين يعطون أنفسهم مقام الوصاية على الدين وأهله، ولا همَّ لهم إلا أن يملؤوا طريق المسلمين بالأذى، ويصدوهم عن سبيل الله؛ ترى فريقاً منهم يعملون على تمييع المفهومات الإسلامية، وجعل المسلم يتناولها، وكأنه يقبض على الدخان، فلا أول ولا آخر، ولا مقدمات ولا نتائج، وإنما ضياع يلد الضياع، واستهلاك للوقت في غير طائل، وفوضى قد تنتهي بالقارئ إلى كثير من الإعراض وعدم الاكتراث.

أما الفريق الآخر: فديدنهم أن يملؤوا أذهان الناس بالخرافة، والقصة الفارغة والحديث الموضوع، وأن يُحدِثوا بينهم وبين الإسلام نوعاً من الغبش يمنع وضوح الرؤية لتمثُّل معاني الإسلام الحقيقية الأصيلة، كما جاءت بها منابعه وفهمها أئمة الهدى ـ عليهم الرحمة والرضوان ـ، ثم أن يعطوا أسوأ الأمثلة في سلوكهم وأخلاقهم عندما يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، فيجعلون من الدين بضاعة مزجاة، ويقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ناسين أو متناسين قول الله تعالى: ﴿**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾. يوم تندلق من المنافق أقتاب بطنه، ويدور في جهنم كما يدور الحمار بالرحى.

وإنك واجد في هؤلاء وأولئك جرأة على الحق، وتطاولاً على المعرفة، يحملان على فساد التأويل لكل خطوة ظالمة أو فهم منحرف دخيل، حتى كان من أبسط نتائج ذلك إعطاء الإسلام سمة الهواية حيناً، وسمة الضيق والمحدودية حيناً آخر؛ فهو هواية تتمثل في مجموعة من الطقوس ـ على حد تعبيرهم ـ للمتعة النفسية وقضاء الوقت وملء الفراغ الذي قد يسمونه روحياً ـ لمن أراد ـ، أو هو عنوان فئة محدودة من أبناء الأمة.

وليس كل الناس يؤمنون بالذي تؤمن به هذه الفئة، ويحظى عندهم سلوكها بالقبول؛ كل أولئك من أجل عزل الأمة عن ساحة الالتزام، وإبعاد الإسلام عن أن يكون عنصر الحياة في وجود هذه الأمة واستمرارها؛ فهو هواية قد يشبعها ما يسمى بالاحتفال الديني حيناً حيث تتهيأ عملية الامتصاص للشعور والعواطف. وهو خاص بفئة.. أو غير ذلك من أسماء سموها ومصطلحات تعارفوا عليها.. ما أنزل الله بها من سلطان، وإنك واجد ـ على مر التاريخ ـ أن التعاون قائم بين الطغيان وأهله، وبين أولئك الأوصياء؛ فالأوصياء على الدين وأهله يُضلُّون، والطغاة يستغلون ويُذلون وكم يتقارضون الثناء والتقدير، ويتعاورون راحلة الأذى والتأثيم؛ لأن كلاً منهما عون للآخر على الغاية التي رسمتها مناهج آثمة تريد أن تلقي في أرض المسلمين الرجس والضعف والانحسار، بما تعمل على إبعادهم عن مرتكزات الوعي الإيماني والجهاد الصادق في سبيل الله.

ولما كانت المسؤولية في هذا الباب على قدر المعرفة، فإن الأحداث التي تمر بالأمة، تشعر من كان في قلبه حبة خردل من إيمان بعِظَم تلك

المسؤولية التي ألقتها الأيام على العواتق، كل في حدود الرعاية التي ولاه الله أمرها.

وعلى هذا: فإن أولئك الذين أولتهم الأقدار عبء الريادة على طريق الأمة بما لهم من المعرفة وألوان الثقافة: مطالبون - في الحدود المتاحة - بأن يهبوا قدراتهم لهذه الأمة وفي سبيل الله عز وجل، لما أنهم يملكون الكثير من أسلحة المواجهة في ظل حضارة تمدُّ أعداءنا بالكثير من وسائل التدمير المادي والمعنوي، وفي ألوان لا حصر لها تحت شتى العناوين، ناهيك عن الوصاية التي ألمحنا إليها من قريب. وغير نافعهم شيئاً الركونُ إلى الدعة وإلقاء الحبل على الغارب؛ لأن ذلك ركون ظالم مقيت يخشى معه أن يحق على صاحبه قول الله تعالى: ﴿**وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ**﴾ وما يصيب الفرد والأمة في هذه الدار من آثار هذا الركون نيران قبل نار الآخرة.

ولكم يكون التكامل واضحاً، والثمرات النافعة مضمونة، إذا ضم هؤلاء الرواد إلى ثقافة العقل وما كان من تفتح على ما عند الآخرين من منهجية ومعرفة، ثقافة القلب، فزانت أعماله تقوى الله عز وجل، وكان وراء كل حركة مراقبة لخالق القوى والقدر، فلا همّ لهم إلا أن يحققوا ما فيه الخير لأمتهم، وأن يكون ذلك في حيز القبول عند من تعرض الأعمال بين يديه في ساعة لا تزول قدما العبد فيها حتى يُسأل عن أربع، عن عمره فيم أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن علمه ماذا عمل به، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه.

وإنا لنعوذ بذي العزة والجبروت، أن تغشى أعيننا الفتنة، فلا نبصر وجه الحق، أو أن يران على قلوبنا فنرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

كما نعوذ به ـ وهو الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ـ أن تنحرف بنا الدنيا، فيحلّ علينا غضبه ونقع في مهاوي الإثم، ونضلّ سواء السبيل. . اللهم آت أنفسنا تقواها، وزكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليُّها ومولاها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

obeikandl.com

الأمة.. وعاتق الميزان (*)

القدس في القيد.. ثالث الحُرُم لا يجد اليد التي تمسح عنه عوادي الزمن.. والأمانة تثقل الكواهل بما تلد الأيام من أهوال، وما تتمخض عنه الليالي من فتن كقطع الليل المظلم.. ومع كل صباح لون من ألوان التمحيص جديد.

وليس من مكرور القول أن نشير إلى ما ألمحنا إليه غير مرّة، من أن الأمة الواعية هي التي تمسك بعاتق الميزان أيام الفتنة، فلا تصرفها الأحداث الكبرى عن مرتكزاتها الأولى ومفهوماتها الأصيلة التي ترسم لها الطريق. وإذا كان الأمر كذلك: فلن يستبد بهذه الأمة الارتجال الذي كثيراً ما يضطرب معه حبل القيم، ولن تحكمها ردود الفعل والانعكاسات الطارئة التي تفد كل يوم بلون، لا ينتظمها ضابط ولا يحدها مقياس. وما أكثر ما تولد من عثرات ونكسات.

وعلى هدي هذه البدهية الواضحة التي ترفدها تجارب التاريخ القديم والحديث، يمكن القول بأن من سداد المنطق أن تعمد الأمة المسلمة إلى تصنيف قضاياها تصنيفاً متكاملاً يرسم لكل قضية أبعادها؛ ما هي مقوماتها؟ وما هو دورها على طريقنا الطويل؟ من أين يمكن أن تبدأ؟ وإلى أين يمكن أن تنتهي؟ وإلى أي مدىً تقترب أو تبتعد عن معالم الضياء التي أنارت لها السبيل وبصَّرتها مواقع القوة في شتى الميادين؟ وما هو نسبها إلى

(١) مجلة حضارة الإسلام: العدد الخامس، السنة الحادية عشرة، رجب ١٣٩٠هـ، أيلول ١٩٧٠م.

تلك الألوان من علاقات الأمة الداخلية والخارجية، وساحة وجودها الحضاري رغم الفتن ومطارق الابتلاء؟

والأمة حين تفعل هذا، تكون قادرة على البعد عن ساحات الضياع. كما يكون باستطاعتها اكتشاف ما وراء الأحداث والإفادة من مواقف العظة والعبرة، حتى تكون تلك الأحداث وتلك المواقف لها، لا عليها في خاتمة المطاف. وذلك مما يمكِّن لها بعون الله أن تضع القدم الثابتة على طريق البناء، فلا تكون كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثاً.

وإنما كان ذلك كذلك، لأن التصنيف الواعي في ظل مبادئنا ومثلنا وحاجاتنا القريبة والبعيدة، يوفر للطاقات أن تعمل في حدود الاختصاص وميادين الإنتاج، فلا يضيع شيء منها هدراً، ولا يعوزك أن تجد الفرد حيث يجب أن يكون. كما يدفع عن الطريق تلك المعوقات التي قد تحول دون المتابعة والاستمرار، بل والثبات على الحق الذي في سبيله تجنَّد الطاقات ويندفع العاملون. حتى إذا استيقظت في نفس المؤمن كوامن الحركة والانطلاق، وتدافعت على أبواب الحياة سواعد الخير، وتجمعت كل الطاقات المبعثرة لتقول كلمتها، رأيت صفحة جديدة تكتب في تاريخ المسلمين الحديث.

وفي أعقاب ذلك: لن تجد - إلا لماماً - تلك الممالك الصغيرة في أذهان بعض العاملين في أرجاء العالم الإسلامي هنا وهناك، حيث يفتش كلٌ عن قضية يجدها لنفسه، حسب اجتهاده أو وفق هواه، راية يتحرك في ظلها،

ويمضي الساعات والأيام في تدعيمها والبحث عن مسوِّغات التخصص في بحثها دون كل القضايا التي قد تكون كل واحدة أهم منها بألف مرة، من حيث واقع الأمة ومعاركها التي لا تتناهى مع أولئك الكفرة من الأعداء الذين يتحركون على صعيد عالمي، لا يعرف في مواجهة الإسلام هوادة ولا رحمة.

ومرة أخرى لو سلكت سبيل الاستقراء - ممسكاً بمصباح التجرد عن الغرض - لروّعك ما تجد من تلك الطاقات المهدرة، والكفاءات المبعثرة، والجهود التي لا يجمع شملها رابطة، ولا يلم شعثها منهج، والعدوُّ بالمرصاد يرقب ما نبدئ وما نعيد، ويثلج صدره - عليه اللعنة - ما يكون من تلك المقدمات الخائبة التي تلد تلك النتائج الجارحة المؤذية، والعياذ بالله.

وفي دائرة أوسع من هذا الذي نشير إليه: تجد فيما تمليه طبائع الأشياء، وما ينطق به تاريخ الوقائع، أن من الملمات التي أصابت ديار الإسلام، ما تراه من الفوضى في النظر إلى قضايا الإسلام والمسلمين ومشكلاتهم التي تكاد ترتد في الأعم الأغلب إلى أصول واحدة معروفة، وأن تلونت المشكلة بلون البيئة والظروف هنا وهناك.

وبسبب من هذه الفوضى والبعد عن التصنيف الأمين الواعي كما يفرضه الإسلام: تسير الأمة قرناً من الزمان وهي تقول: كان من الأجدر أن يفعل كذا، وأن يكون كذا دون الخروج إلى حيز التنفيذ ويأتي أبناء الجيل الذي يخلف من سبقه ليقولوا الكلمة نفسها، ويرددوا التأوهات وألوان النواح،

ويحيلوا الأمر جملة وتفصيلاً على أعداء الإسلام الذين يفعلون كيت وكيت . . ويغرق الكثيرون في هذا ويُغرقون، ليأخذ التخلي عن المسؤولية والجهاد والعمل وفق إرادة التغيير طابع الشرعية. كأن المفروض بأولئك الأعداء أن يهبونا جنات تجري من تحتها الأنهار، وأن نكون نحن دمىً تقلبها الأيام كيف تشاء. إن العقرب لا تُسأل لماذا تلدغ كلَّ مرة، إنها تلدغ لأنها عقرب، وموضع الغرابة أن لا تفعل ذلك، وإن علينا أن نعلم وندرك ونعي، فلا يأخذنا دوار الغفلة عما يجري حولنا، ولكن في الوقت نفسه لابد أن ندرك مسؤوليتنا، ونفقه كيف نسير.

ولقد تكون أمانة هذه الدعوة ـ بجملتها ـ في عصر من العصور أكبر من طاقة أولئك الذين تؤرقهم وتثقل كواهلهم؛ لأن على هؤلاء الرواد أن يواجهوا أسباب المرض الكثيرة التي يرتد بعضها إلى داخل النفوس باستعدادها للانهزام والتقهقر وقابلية الفوضى، وعدم القدرة على التكيُّف مع المنهجية والتصنيف. كما يرتد بعضها إلى ما يدبر أعداء الإسلام من الأحابيل والمكائد التي قد لا تخطر لشياطين الجن ببال.

قد يكون ذلك وأكثر منه، ولكنه لا يبني ـ والتمحيص واقع لا محالة كما صرح القرآن ـ إلا المحاولة الجادة المخلصة، في تحويل الإرادة إلى كائن حي، تلك المحاولة التي تضع في اعتبارها تصنيف القضايا، ووعيَ حاضر المسلمين، ووضع الأصبع على مكمن الداء من جذوره، خصوصاً فيما يتعلق بتكوين الفرد وإعداده القاعدة الصلبة القادرة على التحمل أولاً، والعطاء

ثانياً. يرافق ذلك الوقوفُ عند عبر الماضي، ما كان لنا وما كان علينا. ولتأخذ الأمور أرقامها، أيُّها يكون المقدَّم، وأيها يكون المؤخر الآن، لا لأن ما أخرناه غير ذي أهمية في ذاته أو أنه بعيد عن بُنية الإسلام أو ضرورات الأمة وحاجاتها، ولكن لأن الحكمة في ذلك، ولكيلا تثقلنا المشكلات، فتحكمنا بدل أن نحكمها، وتوجهنا بدل أن نوجهها، حتى نضع لها الحلول ونسلمها إلى مكانها الطبيعي وذرأ عن الأمة لوناً جديداً من المثُلات.

إننا إن فعلنا ذلك: كان كل أمر تمهيداً طبيعياً للأمر الذي يتلوه، وكنا في مأمن من تصرفات الارتجال، وفي منجاة من أن يحلَّ ردُّ الفعل محلَّ المنهج والتصنيف، وأن تستبد النزعة الفردية وحب الممالك والدويلات التي تبنى على دعاوى تعوز أصحابها البينات.

إن عملية إنقاذ المريض على أساس من الرغبة الصادقة في إنقاذه بيد مختصة أمينة، غير الاكتفاء بتهيئة طاقة من الزهر والريحان نضعها عند رأسه تأنس بها عيناه، ويطرب لروحها عوَّاده الكثيرون، ولكن لابد من تقديم ما هو جدير بالتقديم، وإلا وقعت الكارثة.

أرأيت إلى صنع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أيام الردة؟ لقد كان صنيعاً يمثل الوجه الصادق المشرق لمدرسة النبوة التي تربى في ظلها؛ فأعطته مع الإيمان الغامر القدرة على وضع الأمور مواضعها، والحركة الجازمة الحازمة في التنفيذ، فليس شيء يحول دون ردِّ الأمر إلى نصابه في قضية من أخطر قضايا الإسلام لأنها كانت مفترق الطريق.

وفي يقيننا أن جدِّية العمل لهذا الدين، والإخلاص للأمة التي أولاها الله أمانة الحراسة لمبادئه، والإدراك المبصر لطبيعة التحركات الخاسرة الظالمة في مواجهة الإسلام. . .

كل ذلك يجعل من مراجعة رصيد الماضي وحتى اليوم، وإعطاء كل قضية مكانها الطبيعي وحيِّزها الذي هي جديرة به، أمراً جليل الخطر لمن أراد ـ بصدق إيمانه ـ أن يسير في الطريق التي تضمن نصر الله ومعونته سبحانه، وأن يكون على الخط المستقيم الذي يصل بالأمة إلى الغاية المرتجاة.

على أن ذلك كله لابد أن ينطلق من قاعدة الاعتصام بحبل الله الذي لا معتصم سواه، والتبرؤ كل التبرؤ من أن نتخذ من دونه أولياء.

إننا إن فعلنا ذلك، كنا مع الإيمان والعقل وحسن التقدير، وإلا حق علينا قول الله في محكم كتابه: ﴿**مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾.

وأخيراً إننا إذ نذكر هذا التحذير لابد أن نذكر معه واحدة من المسلَّمات، وهي أن التحميص ـ كما أشرنا من قبل ـ من مستلزمات طريق المؤمن في ظل راية التوحيد المطلق لنصرة الله ودينه. ومن الغباء الأسود بمكان أن تحسب القضية بالأجر المادي الناجز والعافية من الابتلاء، والعياذ بالله. ولقد ندَّد الله بأناسي كان ديدنهم ذلك، وجعل الحديث عنهم قرآناً يتلى لتعي القلوب وتفقه النفوس، ويدرك المؤمن المجاهد طبيعة الراية التي يتحرك في ظلها،

وأنه حين يقف حارساً للحق في مواجهة الباطل لابد أن يبلغ الغاية في إدراك معنى هذه الحراسة ومستلزماتها ذلكم هو قول الله جلَّ وعز:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾.

وإذا كان الخير يجلب الخير: فإن ما نذكر به من حقائق يأخذ بأيدينا إلى حقيقة أخرى غاية في الوضوح ذات شُعب أربع في سورة «المائدة».

فمن نهي عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، إلى الوعيد الشديد لمن يسقطون في حمأة هذا الولاء، إلى الكشف عن مرضى القلوب الذين يتمرغون في الحمأة القاتلة، ويعتذرون عن السقوط بعذر أشد قبحاً من السقوط نفسه، تلا ذلك بشارة ربانية للمؤمنين، يبْعث حصولها الندمَ عند المنافقين، ولات ساعة مندم.

ذلكم قول الله جلت قدرته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَن تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسَرُّوا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾.

اللهم ألهمنا رشدنا، وهيِّئ لهذه الأمة ما يجعلها على الطريق تصنيفاً لقضاياها وإعداداً واعياً لكل ما هو من مستلزمات العمل والبناء، وباعد بيننا وبين النفاق وسدنته وأهله، إنك نعم المولى ونعم النصير.